إشكالية الوعي بالمصطلح السيميائي في الخطاب النقدي العربي المعاصر

The problem of awareness of the term "semiotic" in contemporary Arab critical discourse

الدكتور: نبيل قواس

أستاذ محاضر -ب-

nounougaouas@gmail.com

جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2019/02/05 تاريخ القبول: 2019/05/09 تاريخ النشر: 2019/06/03

ملخّـــص:

المصطلحات مفاتيح العلوم وخلاصتها، هي بمثابة حبل التواصل المعرفي بين مختلف الثقافات والعلوم عامة. ويمثّل المصطلح إشكالية ومعضلة معقّدة في حقل الخطاب النقدي العربي المعاصر، إذ لابد من تحديد شفراتها وفكّ رموزها. طالما تؤدي هذه الظاهرة إلى إثارة الكثير من التساؤلات لدى الباحثين والدارسين.

وقد استعصى على النقاد نقله وترجمته إلى العربية، فكان تلقيه بطريقة تنتابها الفوضى وبمرجعيات متنوعة ، ومن زوايا متعددة . وفي خضمّ هذا الموقف الشائك كان لابدّ من وضع بحوث علمية لتكون ربما حلولا مقترحة للخروج من هذه المعضلة.

الكلمات المفتاح : المصطلح النقدي - الخطاب النقدي - الوعي - السيميولوجيا . السيميائية.

ABSTRACT

Terminology is the keys to science and its syntheses. It is the gateway for the transmission of knowledge between different cultures and sciences. It represents a problematic and complex dilemma in the field of contemporary Arab critical discourse, insofar as its codes must be demarcated and decrypted, researchers have long questioned this phenomenon. The transfer and translation of the latter has been difficult for critics; therefore, its reception has been accomplished through various angles and references and in a chaotic manner.In the midst of this epistemological disorder, academic studies must intervene to provide issues.

Keywords:critical terminology - critical discourse - consciousness - semiotic semiology

مقدمـــة:

شهد الخطاب النقدي العربي المعاصر تحولات كبرى في جميع الأصعدة الثقافية والمعرفية والفلسفية والنقدية، فكانت نتيجة ذلك إثراء الكثير من الحقول المعرفية وكذا خلق وعيٍ نقدي لدى العربي من خلال الترجمة والمثاقفة بغية الالتحاق بركب المعرفة والتطلع نحو الآفاق المستقبلية، من أجل النهوض بواقعه الثقافي. لكن الذي لابد من الاعتراف به ههنا هو تلك المعضلة النقدية التي أوقعت الناقد العربي فلم يستطع بعد الخلاص منها، متمثلة في إشكالية الوعي بالمصطلح السيميائي. التي تُعد من أبرز الإشكاليات النقدية، فقد أثارت الكثير من التساؤلات حول طبيعتها وظروف نشأتها وكيفية تلقيها في الخطاب النقدي العربي المعاصر. وعليه وقع النقاد في تباينات واختلافات عديدة صوب هذه الإشكاليةَ ! لذا سعوا للوقوف على أزمة هذا المصطلح وتداعياته، وعلى مدى وعي الناقد العربي واستيعابه له.

إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي المعاصر:

إنّ تلقي المصطلح في الخطاب النقدي العربي المعاصر أدى إلى بروز فوضى في تلقيه وفي توظيفه في المجال اللغوي والمعرفي لدى المتلقي العربي. ومما زاد تعقيدا لهذا المصطلح هو عدم التعمق أو عدم الفهم لكثير من المدلولات المتعلقة بتلك المصطلحات، كونها انبثقت في بيئة غير البيئة العربية، وثقافة غير

الثقافة العربية، وبالتالي بقي الخطاب العربي المعاصر يتخبط في دياجير الظلام، "خصوصا وأنّ أبرز مظاهر الأزمة التي يتخبط فيها الخطاب النقدي العربي المعاصر تعود فيما تعود إليه إلى الانفتاح اللامشروط الذي شهدته الدوائر الفكرية العربية على غيرها من الغرب، دون محاولة لتصفية هذا الوافد من شوائب الانتماء إلى تربته الأصلية في تربة الثقافة العربية"[1].

إنّ الانفتاح الحاصل في عصرنا هذا للنقد العربي كان نتيجة الاحتكاك والترجمة، ولعلّ الانبهار بهذه المصطلحات والمناهج والاستفادة منها كان من أبرز مظاهر هذا الانفتاح، وعليه سعى الناقد العربي لتأييد وتهليل الوافد واستيراد ما لدى الآخر من ثقافة نقدية، مما أدّى إلى نتيجة الفوضى والغموض، وذلك ما جعل الإجراءات النقدية العربية الأولى تأتي "في شكل يسمح غالبًا بالتلقي ولا يسمح بالمناقشة، وكانت أغلب الدراسات تفتقد إلى المرونة، وكأنّ النقاد في تطبيقهم المناهج الأوروبية يطبقون مبادئ منطقية محددة ومصطلحات جاهزة، ظنّا منهم أنّ الأدب يمكن أن يتحوّل إلى علم صارم، ممّا أدّى إلى التباس الخطاب النقدي لدى المتلقي"[2].

يتراءى من هذا التصور، أنّ الناقد العربي يعاني من إشكالية تلقي المصطلح الوافد، ولعلّ استعمال المصطلح في الخطاب النقدي العربي كان استعمالا شكليا بعيدا نوعا ما عن مدلوله المعرفي، فكان توظيفه فوضويا. يقول سمير حجازي: "أما عن موقف النقاد أو الباحثين العرب من إشكالية المصطلحات والمفاهيم النقدية فإننا نلاحظ أنّ هناك عددًا غير قليل من النقاد والباحثين يستعملون مصطلحات أو مفاهيم نقدية على نحو يدلّ على أنهم لم يستعملوها إلا من قبيل اللغو من قبيل الموضة الفكرية دون أن يعرفوا كيفية الاستعمالات الدقيقة لهذه المصطلحات، أو بعبارة أخرى يستعملونها استعمالا شكليا معزولا عن مدلولاتها المعرفية واللغوية"[3].

ويعدّ التاريخ والحضارة من أبرز المشكلات العويصة في نقل المصطلح أو ترجمته في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ولعلّ مردّ ذلك إلى اختلاف الثقافات والمرجعيات بين الأنا والآخر، وبالتالي غياب الوعي عند الأنا، وعدم إدراك الظروف الفكرية لمعرفة محيط فلسفة الآخر. الأمر الذي أدّى إلى غرابة مختلف المفاهيم التي تصلنا من الآخر. "والواقع أنّ استخدام المصطلح في النص النقدي المترجم وغير المترجم كان يلزمه في البداية مرحلة لإعداد فكر القارئ لمواجهة المصطلح والتعامل معه، حتى يتخلص القارئ من الشعور بالاغتراب وهو يتعامل مع هذه المفاهيم التي أصبح تحديد معناها ضرورة علمية، وضرورة ثقافية تشير إلى إمكانية التواصل مع نموذج ثقافة المجتمع الصناعي أو ما بعد الصناعي بطريقة موضوعية رغم ما يوجد بين هذا المجتمع وبين مجتمعنا من هوة تاريخية وحضارية"[4].

الواضح من هذا التصور هو صعوبة المهمة لدى القارئ العربي، فالواجب له الاستعداد لهضم المصطلح وإعداد الفكر للتعامل معه، لكي يشعر المتلقي في الأخير بالسكينة وعدم الاغتراب في مواجهة المصطلح الوافد، شرط أن تكون لديه ضرورة ثقافية يتواصل بها مع الآخر للتمكن من استيعاب المصطلح ومعرفة فلسفته وإيديولوجياته في ثقافة الغرب. يقول مطاع صفدي: "إنّ غياب المرجعيات الرئيسية من الثقافة الغربية عن المكتبة العربية إجمالا، قد أسهم إسهاما كبيرا في تشويه مختلف المفاهيم التي تردنا

من الغرب، ليس فيما يتعلق بالحداثة وما بعد الحداثة فقط بل حتى الماركسية نفسها تأتي بشكل سيء وتفهم بطرق أسوأ"[5].

وهكذا... تبقى إشكالية الوعي بالمصطلح وإدراكه غير مقتصرة بالخطاب النقدي فحسب، بل يتجاوز ذلك حتى إلى الأدب بصفة عامة، والحل هو وجوب الإلمام بالثقافة الغربية وضرورة معرفة إيديولوجياتها لفهم ذاتنا التائهة في غيابات الفكر الغربي، ثمّ عدم الانجرار مع قافلة الدارسين الذين لا يحسنون توظيف المصطلحات واستعمالها عُرْفًا أي "كيفما أُتُّفِقَ ودون ضبط لمفهومها، ممّا يشي بعدم تمثلهم لها وتمرّسهم بها، وبذلك تنتفي فائدة هذه الأداة الإجرائية القيّمة ويُبطِلُ مبرّر وجودها ويحرّض الدارس على التنبيه إلى أنّ رفض المصطلح كما وظّفه الدارسون العرب لا يعني التقليل من قيمته ولا الغضّ من أهميته البالغة حتى أحسنّا توظيفه"[6].

وحتى تتم الرؤية الواضحة للمصطلح النقدي، لابدّ للناقد العربي أن يكون مُلمّا بمختلف التيارات النقدية الغربية، مُدركًا ثقافة الآخر وفلسفته عارفا بمختلف المسالك والمدارك التي ينهل منها الناقد الغربيُّ، ذلك أنّ نقدهم مؤسس وممنهج وفق طرائق مستقاة من الواقع والعلوم التجريبية، وهذا الذي يعاني منه الناقد والخطاب النقدي العربي المعاصر في مختلف تياراته النقدية.

إنّ الذي يعنينا في هذه الورقة البحثية هو تتبع مصطلح السيمياء وكيفية تلقيه في الخطاب النقدي العربي المعاصر، انطلاقا من جهود السيميائيين العرب لهذا المصطلح، لنتمكن من اكتشاف التباين، واستجلاء خصائص استعماله من ناقد لآخر.

إنّ مفاتيح العلوم مصطلحاتها، كما يرى علماؤنا القدامى، ولكل علم مصطلحاته الخاصة، وبه يُعرف ويُميّز عن غيره، وإنّ أيّة نظرية ترتبط مبدئيا وأساسًا "بقدرتها على المثول أمامنا على شكل لغة صورية شكلية، أي باعتبارها سلسلة من المصطلحات، وحقيقة أنّ الوجه مرئي لأية نظرية يمثّله سجلّ اصطلاحيّ يرسم لهذه الأخيرة حدودها وامتداداتها داخل غيره من النظريات الأخرى، وأيّ إخلال بهذا السّجلّ هو إخلال بالنظرية ككل، وببنائها ذاته"[7].

يتبيّن من خلال هذا النّص، أنّ المصطلح ذو أهمية بالغة سواء في ترجمته أو في استعماله، وعليه يتوجّب على المُترجِم الإلمام بثقافة الآخر، والتواصل الفعّال بين اللغات من أجل الاستيعاب والتأويل، وإنّ عدم التمكّن من ذلك يؤدي حتما إلى الإخلال والاضطراب في نقل المصطلح.

لذلك يرى رشيد بن مالك أنّ التّرجمة "ينبغي أن تؤدّي وظيفتها التواصلية انطلاقا من قراءة النّص الأصل وتمثّله، وفهم مصطلحاته الأساسية في ضوء الإحاطة بأسبقيتها النظرية والنظر إليها من زاوية تتيح الوقوف في علاقتها بالتوجه السيميائي. بهذه الرؤية يكون الفاعل المحلّل، قد حقّق نسبة عالية من الفهم والتأويل لا يسعه في المرحلة الثانية سوى نقل هذه الحمولة المعرفية في اللغة الهدف... إنّ اختيار المصطلح المناسب، يتوقف على معاينة المصطلحية المعتمدة في البحوث والقواميس العربية، وضرورة الاستناد إلى ما هو شائع منها، والاعتماد في حالة حدوث الاختلاف بين الباحثين، على جهود القدامى في المجالات اللغوية والفلسفية والارتكاز على الاشتقاقات التي تزخر بها اللغة العربية"[8].

يطرح الخطاب النقدي العربي المعاصر إشكالية تلقي المصطلح التي عانى منها حينا من الدهر. ولعلّ عدم استيعاب هذا المصطلح عائد إلى أنّه ليس وليد البيئة العربية وثقافتها، وهو من صنيع الآخر، ما أدّى بالعربي إلى الانبهار والتهليل للوافد، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في كيفية استعمال المصطلح ووضعه الوضع الدقيق وإعطائه الدلالة المناسبة في السياق، وهذا ما عبّر عنه سمير حجازي في قوله: "إنّ أغلب أصحاب البحوث أو الدراسات النقدية المترجمة التي تبنّت النظرية الحديثة نقلت الاصطلاح عن الثقافة الغربية، وهذا النقل لا نعلمُ إذا كان قد تمّ وفق قواعد موضوعية أو غير موضوعية، إذ ليس لدينا أدلة أو شواهد يقينية تؤكّد لنا هذا أو ذاك. إنّ السبب المباشر لهذا القول هو ظهور مشكلة على جانب كبير من الأهمية تتمثل في أنّ نقل المفهوم أو الاصطلاح من ثقافة إلى ثقافة أخرى ليس بينهما معايير واحدة في اللغة أو في الفكر يجعل المفهوم أو الاصطلاح لا يحمل نفس الأدلة في السياق الذي نشأ فيه أو في السياق الذي تمّ النقل إليه، والمحصّلة لذلك غياب الدلالة الأصلية عن القارئ، أي الدلالة القائمة في ثقافة المنشأ، الأمر الذي يؤدي إلى استعمال الاصطلاح ناقصا شروط وجوده وشروط استخدامه بالمعنى الذي ظهر به في بيئته الأصلية"[9].

إنّ تطوّر النظريات النقدية الغربية أدّى بالعربي إلى الانتصار لروح المصطلح الجديد الوافد، والاعتراف بشرعية هذا المصطلح وسيادته، تقول هيام عريعر: "والذي يُعيد النظر في مسألة شيوع المصطلح الغربي قبالة غياب أو انحسار المصطلح العربي، يجد أنّ هناك عددا كبيرا من النقاد العرب أخذ على عاتقه مهمة الترويج للمصطلح الغربي والاعتراف الضّمني بفيما يقوم به من إلحاح على المصطلح الجاهز- بسيادة الأخير وفاعليته وعدم إمكانية استبداله بآخر، وأكثر ما يمكن أن يُقدّمه في هذا الباب هو التعديل والتحوير أو الإضافة الطفيفة التي لا ترقى لمستوى البدائل أو حتّى المقترح، وغالبا ما يأتي هذا الاستعمال مشفوعا بمبررات هي في الأغلب انتصار لروح المصطلح الدّخيل"[10].

الجهاز المصطلحي للسيميائية/ قراءة في تباين المصطلح:

تعدّ السيميائية من أحدث العلوم الإنسانية، وهي من الحقول المعرفية الراسخة في مجال الدراسات الحديثة، وهي تُعنى بتفسير معاني الدلالات والعلامات والرموز الداخلة في إطار اللغة والأدب والفن، وفي مجالات أخرى كالطب والرياضيات وعلمي النفس والاجتماع وغيرها...

ليس الذي نصبو إليه هو التعريف بالسيمياء أو البحث في أصولها ونشأتها أو جذورها الفلسفية، إنما نسعى من خلال هذه المقالة لتتبع ترجمة مصطلح السيمياء وطريقة تلقيه في الخطاب النقدي العربي المعاصر، وذلك بإبراز التباينات المختلفة بين النقاد في نقل هذا المصطلح ومدى ملاءمته للسياق في اللغة العربية.

إنّ مصطلح السيمياء كغيره من المصطلحات قد لقي رواجا في ساحة النقد العربي المعاصر، وربما يعود ذلك إلى ثقافة كل ناقد ومرجعياته الفلسفية والفكرية، ومدى وعيه للغة الآخر، وترجمة مصطلح السيمياء إلى اللغة العربية جاء بتسميات كثيرة، لعلّ أبرزها مصطلح "**Sémiologie**" كما هو عند عبد السلام المسدي الذي ترجمه إلى السيميائية في قاموس اللسانيات، كما ترجم محمد رشاد الحمزاوي

مصطلح **Sémiologie** إلى السيميولوجيا، أما حنون مبارك يترجم مصطلح **Sémiologie** إلى السيميوطيقا، في كتابه دروس في السيميائيات.

ويتمسّك "حفناوي بعلي" بمصطلح السيمياء دون غيره "لانسجامه اللفظي والصوتي مع المصطلح الأجنبي من جهة، ولعلاقته الدلالية بما ورد في تراثنا اللغوي العربي من جهة أخرى"[11].

يعرض حفناوي لثلاثة أنواع من المصادر العربية الحديثة، التي يمكن من خلالها دراسة واقع مصطلح السيميائية، وهي على التوالي:

1- ترجمات كتاب فرديناند دي سوسير، وكيفية تعامل المترجمين مع المصطلح، "**Sémiologie**".

2- الكتب المؤلفة في اللسانيات عامة، وعلم الدلالة والسيميائية خاصة.

3- ما ألّف من معاجم أو مسارد للمصطلحات.

ومن أبرز الترجمات التي أوردها حفناوي في هذه المصادر الثلاثة ترجمة مصطلح **Sémiologie** إلى علم الدلائل، علم العلامات، الأعراضية علم العلاقات، السيمالوجيا (لمحمود السعران)، علم الدلالة، علم المعنى (تمام حسان)، علم الرموز، علم العلامات، السيميوتية (معجم مصطلحات علم اللغة الحديث)، علامية (قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدي).

وفي المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات لنخبة من الأساتذة العرب 1989، ورود مصطلحين مترادفين هما علم الدلالة وعلم السيمياء، للدلالة على المصطلحين المترادفين هما: **Sémiologie** و**Sémiotique** معًا[12].

أما بالنسبة لرشيد بن مالك فقد أورد في قاموسه "مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص"، وكذا في كتابه السيميائية، الأصول، القواعد، والتاريخ، مصطلح: **Sémiologie** و**Sémiotique**، بمعنى السيميائية.

لعل التّباين الواضح في نقل وترجمة مصطلح السيمياء عائد إلى تعدّد اتجاهات السيمياء (سيمياء التواصل، سيمياء الدلالة، سيمياء الثقافة...) من حيث المنطلقات والخصائص، الأمر الذي أدى اضطراب المصطلح وعدم استقراره، ولعلّ عدم الاستقرار في وضع المصطلح يؤدي إلى بروز إشكالات في الخطاب السيميائي العربي المعاصر، ثم إنّ تعدّد المصطلح وتباينه لم يكن "ناتجا عن مشكلات الترجمة بقدر ما هو تعدد في المصطلحات المستعملة من قبل المنظرين الغربيين أنفسهم، ولكنّ هذه المصطلحات المتعددة تدلّ على قدر الاستهواء والإغراء الذي مارسته الظاهرة على الباحثين، بحيث أثبتت جدارتها وعدم إمكان تجاهلها"[13].

إنّ السمة الغالبة في البحوث النقدية العربية ظاهرة فوضى المصطلح الناتجة -ربما- عن التسرّع في تبني المنهج أو المصطلح، وعن غياب الوعي الصارم في نقل المصطلح وفهمه وتلقّيه، وعليه فمن المؤكد أن تنهار المنطلقات التي ينبني عليها التواصل العلمي والمعرفي. ولذلك يقترح "رشيد بن مالك" بعض الخطوات التي تمس عملية الترجمة بقوله: "إنّ أوّل خطوة يمكن أن نقوم بها في عملية ترجمة المصطلح السيميائي، هي أن نبدأ أولا بحصر المصطلحية في المعاجم والبحوث العربية المتخصصة، ونتجه ثانيا إلى ترجمة ما

استعصى نقله، وفق عمليات التوكيد والاشتقاق والتعريب، وينبغي أن تدرج هذه الخطوة المنهجية ضمن مشروع علمي، لا يملك قيمته الحقيقية إلا إذا تحوّل إلى موضوع تحرّ جماعي"[14].

أورد "يوسف وغليسي" مجموعة كبيرة من المصطلحات العربية المتعلقة بمصطلحي **Sémiologie** و**Sémiotique**، سعى فيهما ثلة من النقاد العرب المعاصرين ترجمتها للعربية في كتبهم، ولعل أبرزها: سيميولوجيا في معجم "المصطلحات الأدبية الحديثة" لسعيد علوش، وسيميولوجية في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، لعبد الملك مرتاض، وساميولوجيا لمحمود السعران، وعلم الرموز لعلي القاسمي في معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، وعلم الدلائل لعبد الحميد بورايو في (مدخل إلى علم السيميولوجيا) ترجمة دليلة مرسلي، وعلم الإشارات لميشال زكريا، في الألسنية، والأعراضية ليوسف غازي ومجيد النصر ترجمة (محاضرات في الألسنية العامة) لدوسوسير.

أما مصطلح **Sémiotique**، فقد وردت ترجمته كالآتي:

سيميائية لعبد السلام المسدي في قاموس اللسانيات، السميائيات لسعيد بنكراد، ترجمة كتاب (التأويل بين السيميائيات والتفكيكية) لإيكو، وسيميوتية للقاسمي وآخرون، معجم مصطحات علم اللغة الحديث، والسيميوتيكا لعبد الملك مرتاض في تجليات الحداثة. والدلائل لمحمد البكري (العرب والفكر العالمي) وعلم الدلالات لمحمد عزّام، الأسلوبية منهجا نقديا، والسيميوطيقا لمحمد مفتاح في تحليل الخطاب الشعري، والإشارية لعبد الملك مرتاض في النص الأدبي من أين وإلى أين[15].

لقد أحصى يوسف وغليسي ستة وثلاثين (36) مصطلحا عربيا، من مختلف كتابات النقاد العرب المعاصرين. الأمر الذي أدّى إلى الحيرة والاندهاش، فكيف لستة وثلاثين مصطلحا في مواجهة مصطلحين أجنبيين !؟، يقول "ستة وثلاثون مصطلحا عربيا (وما خفي عنّا سيجعل الأمر أعظم !) في مواجهة مصطلحين أجنبيين اثنين يُعبّران عن مفهومين متداخلين لكنهما واضحان نسبيّا، أي أنّ المعادلة الغربية (2=2) انتقلت إلى الوطن العربي بشكل لا يمكن أن يكون إلا مشوّها (2=36 !!!)"[16].

ويورد عبد الله بوخلخال سببا وجيها يعد من أبرز أسباب الاضطراب المصطلحي، فيقول: "إنّ ضعف التنسيق هو العلامة المميزة بين هذه الجهات والمؤسسات العلمية والثقافية المختلفة، أضف إلى ذلك اختلاف مشارب الأفراد الذين يساهمون في وضع المصطلحات، وميل معظمهم إلى الفردية ومخالفة جهود الآخرين"[17].

وتعلل فايزة يخلف تداخل المصطلحات وتعددها بقولها: " فالمتأمل في مصطلح "سيمياء" و"سيميائية" وما يتقاسمهما من حيث الجانب الترجمي في اللغة الإنجليزية من "**Semiology**" و"**Semiotics**" يدرك بأنه ظل عرضة لتأثيرات مساعي وجهود الباحثين لتحقيق المكافئ المعادل لهذين الاستخدامين أو هو ما أفضى إلى إيجاد عدة مقابلات عربية من قبيل : السيميولوجيا والسيميوطيقا والسيميوتيك وكذا علم الإشارات والإشاراتية وعلم العلامات والعلاماتية وعلم الأدلة والدلائلية... وغيرها مما تزخر به ترجمة المصطلح بإجراءاتها النظرية والتطبيقية".[18]

ولتفسير هذا الاضطراب في المصطلح السيميائي وترجمته واختلاف مضامينه أحيانا يُرجع فضل ثامر السبب إلى مصطلح "**Semiology**" ذاته فيقول " إذ نعتقد مثلما آل إليه مجموعة من الباحثين أنه يحمل جذرا عربيا ، كما يحمل أيضا معطى صوتيا معربا للصوت الأجنبي، ويقبل الإضافة والجمع والنسبة والاشتقاق".[19]

يقر عبد الملك مرتاض بحقيقة مشينة مفادها أن المصطلح السيميائي مأزوم في خطابنا النقدي العربي المعصر قائلا: "أرأيت أن الناس يستعملون عدة مصطلحات لمفهوم واحد، في هذه المسألة، أو مصطلحات لغير ما وضعت في أصل المواضعة العلمية، وذلك كما يقع الخلط في الاستعمال إلى حد الاضطراب: بين السيميائية، والسيميائيات، والسيميولوجيا، والسيميوتيكا، أو السيميوطيقا، والسيميائية وهو مصطلحنا... "[20]

ولما أراد مرتاض إزالة الغموض واللبس لمصطلح السيميائية، ذهب لتأصيل هذا المصطلح في الثقافتين العربية والغربية. ليخرج بمصطلح "السمة". ثم يضع فرقا بين هذا المصطلح ومصطلح "التسويم"، فيقول: "وإن أصل السمة في اللغة العربية، آت من الوسم (و س م) وليس من التسويم (س و م) الذي هو نفسه يعني ما يعنيه في الحقيقة تركيب "الوسم" وهو إحداث تأثير، أو علم: بكي أو وشم أو قطع أو نحوه.... "[21]

إذا، مرتاض يحاول العودة إلى الموروث العربي لتأصيل مصطلح السيمياء والبحث عن جذوره لتوضيح دلالته، ولكي يدعم هذا التصور، نجده يعود إلى فكر الجاحظ فيقول: " وإن الإشارة باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب- إذا تباعد الشخصان- وبالثوب وبالسيف".[22]

ولما جاء النقاد العرب المعاصرون ترجمة مصطلح "سمة" في كتاباتهم وبحوثهم وقعوا في ارتباك ترجمي واضطراب في الوضع. فمرتاض يرى: "أن السيميائيين العرب حين جاءوا إلى إدراج هذا المعنى ضمن ما يفيد معادلا للمصطلح الأجنبي**signe, sign** وهم قليل، إذ منهم من يصطنع "العلامة" وهم خلق كثير".[23]

وعن مصطلح "سمة" في ثقافة الآخر، يذهب مرتاض ليناقش تصور "جوليا كريستيفا"، التي أثارت ضجة حول إعادة تنظيم العلاقة بين السمة ومنتهاها التقليدي: السيميائية، وذلك بإبداعها مصطلح " نتاجية" . ومرتاض يخالفها في قضية ربط الأسطورة بالدين، والدين بالأسطورة، وهو يرى ذلك إلحادا لا مبرر له. وإن الإسلام لا يقبل أسطرة الأشياء. فهو يدعو إلى العقل، والتأمل والتدبر.[24]

ويرى مرتاض من ناحية أخرى أن مصطلح "السيميائية" في الفكر الغربي، يعود إلى السيميائي الكبير "بيرس" فيعترف قائلا: "والحق أن مصطلح السيميائية الذي كان كثيرا ما يقابله دون تدقيق، المصطلحان الغربيان: "**Sémiologie, Semiology**" و"**Sémiotique, Semiotics**" هو من بلورة شارل بيرس، فهو الذي كان يعدهما بمثابة العلم الكلي للسمات الذي يشمل كل السمات، وهي غير السمات اللسانية".[25]

إن مرتاضا يعترف بارتباط السيميائية بالفكرين الغربي والأمريكي، ولا يرى في ذلك حرجا، فهو يتتبع أصل الكلمة بطريقة علمية ودقيقة. محاولا تقفي الحقيقة أينما وجد مصدرها سواء عند الأنا أو عند الآخر.

وعلى الرغم من تعدد المصطلح السيميائي إلا أن معناه في العربية يكاد يكون واحدا وهو يصب في معنى "السيميائية" . ليكون هذا المصطلح دلالة على العلم العام للعلامات داخل نظام الحياة الاجتماعية . ولذلك حاول عبد الواحد لؤلؤة أن يجد اقتراحا لهذه المعضلة الشائكة بقوله: " لماذا لا نتجنب المزالق ونقول السيميائية وهي ترجمة أفضل من العلاماتية أو علم الإشارة ،إذ يمكن أن يتصرف المصدر الصناعي السيميائية إلى صفة ظرف، في حين يصعب الصناعي أو يستغرب الأمر في غير ذلك" .[26]

لعل العبء الثقيل في فهم المصطلح وترجمته يقع على عاتق المترجم، فعليه أن يحدد المصطلح تحديدا دقيقا، والتأكيد على الترجمة حتى لا يقع القارئ في فوضى التلقي أو اضطراب في الفهم والاستيعاب. تقول هيام عريعر" إن المعرفة المصطلحية جزء من آليات الناقد المتخصص التي يحصل عليها بطول الممارسة، ودقة التعامل مع النصوص النقدية (التراثية أو المترجمة) . فتحديد المفاهيم ورسم الحدود وتأصيل التعريفات تستوجب الدقة ، وترتكز على حالة ثقافية ومعرفية واسعة".[27]

إن الحقيقة التي يمكن أن نستشفها من خلال ترجمات الباحثين العرب في كتاباتهم تكاد تتفق على ترجمة واحدة للمصطلح وهي سيمياء . لأنها الأقرب في أصواتها إلى العربية دالا ومدلولا . ولعل ورود لفظة "سيماهم" في القرآن الكريم وبعض مشتقاتها في كتب التراث العربي جعل هذه التسمية أقرب إلى العربية ، على الرغم أن العرب قديما لم يؤصلوا أو يؤسسوا لعلم السيمياء. إنما نجد بعض الإشارات إلى هذا العلم في قليل من كتبهم. فقد شكلوا الأرضية لتكون - من المفروض- لبنة للأجيال اللاحقة، وسندا لتشييد هذا المشروع الذي بات – الآن- عالميا.

خاتمـــة:

إن مصطلح السيمياء قد مر بمحنة دلالية عسيرة جعلته يرتحل من معنى إلى معنى آخر، ومن مجال إلى آخر. وعليه فإن سؤال المصطلح السيميائي في خطابنا النقدي الراهن لا يزال مفتوحا مطروحا، وفي أمس الحاجة للمزيد من الدراسة والتمحيص، فهو لم ينته بعد إلى قرار طالما أن مختلف التيارات في خطابنا النقدي العربي المعاصر عامة هي أصداء لاتجاهات نقدية غربية . ثم إن عدم استقرار المصطلح السيميائي الغربي كان سببا في فوضى المصطلح السيميائي عند العرب.

لكنّ الجدير بالقول إنّ الترجمة أدّت دورا كبيرا في إثراء مجال المصطلح السيميائي، فكانت الثقافة الوافدة المنهل الذي تغرف منه السيميائية العربية مصطلحاتها، وعلى الرغم من ذلك إلّا أنّ المصطلح السيميائي لايزال متخبطا في دهماء الظلام من سوء الفهم الدقيق للمصطلح، وعدم وعي واستيعاب ما يتعلق به، وهذا ما يؤدي إلى الفوضى والمغالطات الفكرية، سواء في النقل أو في الترجمة.

قائمة المراجع:

1. رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط1، 2000.
2. سمير سعيد حجازي، قضايا النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2007.
3. عبد الغاني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر – مقاربة حوارية في الأصول المعرفية، الهيئة المصرية للكتاب، 2005، دط.

4. عبد الله بوخلخال، مصطلح السميائية في البحث اللساني العربي الحديث، ضمن "السيميائية والنص الأدبي"، منشورات جامعة عنابة، 1995.
5. عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2010.
6. فاضل ثامر، إشكالية المصطلح النقدي في الخطاب النقدي الحديث، بيروت ، ط1، 1994.
7. فايزة يخلف، مناهج التحليل السيميائي، دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 2012.
8. محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارسه النقدية الغربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، الجمهورية التونسية، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ط1، 1998.
9. مسعود بودوخة وآخرون، الأسلوبية مفاهيم نظرية ودراسات تطبيقية، بيت الحكمة، ط1، 2015.
10. هيام عبد زيد عطية عريعر، الخطاب النقدي العربي المعاصر وعلاقته بمناهج النقد الغربي، دمشق، ط1، 2012.
11. يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
12. رشيد بن مالك، سيمات سيميائية – مجلة كتابات معاصرة - ، العدد 39، كانون الأول، كانون الثاني، 1999، 2000.
13. سعيد بنكراد، المصطلح السيميائي، الأصل والامتداد، مجلة علامات، مكناس، لمغرب، ع14، 2000.
14. عبد الواحد لؤلؤة، أزمة المصطلح النقدي، مجلة علامات، 1994.
15. مطاع صفدي، خطاب ما بعد الحداثة، آفاق عربية، ع3، 4، 2001.
16. حفناوي بعلي، التجربة العربية في مجال السيمياء –دراسة مقارنة مع السيميولوجيا الحديثة- /الملتقى الوطني الثاني للسيمياء والنص الأدبي.
17. زبيدة القاضي، النقد العربي المعاصر من النسقية إلى الإبداع، تحوّلات الخطاب النقدي العربي المعاصر، مؤتمر النقد الدولي الحادي عشر، 2006، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، 2008، ط1.

الهوامش:

[1]- عبد الغاني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر – مقاربة حوارية في الأصول المعرفية، الهيئة المصرية للكتاب، 2005، دط، ص 135.

[2]- زبيدة القاضي، النقد العربي المعاصر من النسقية إلى الإبداع، تحوّلات الخطاب النقدي العربي المعاصر، مؤتمر النقد الدولي الحادي عشر، 2006، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، 2008، ط1، ص 65.

[3]- سمير سعيد حجازي، قضايا النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2007، ص 144.

[4]- المرجع نفسه، ص 162.

[5]- مطاع صفدي، خطاب ما بعد الحداثة، آفاق عربية، ع3، 4، 2001، ص 83.

[6]- محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارسه النقدية الغربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، الجمهورية التونسية، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ط1، 1998، ص 148.

[7]- يُنظر سعيد بنكراد، المصطلح السيميائي، الأصل والامتداد، مجلة علامات، مكناس، لمغرب، ع14، 2000، ص 7.

[8]- رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط1، 2000، ص 326.

[9]- سمير سعيد حجازي، قضايا النقد الأدبي المعاصر، ص 167.

[10]- هيام عبد زيد عطية عريعر، الخطاب النقدي العربي المعاصر وعلاقته بمناهج النقد الغربي، دمشق، ط1، 2012، ص545، 546.

[11]- يُنظر حفناوي بعلي، التجربة العربية في مجال السيمياء –دراسة مقارنة مع السيميولوجيا الحديثة- /الملتقى الوطني الثاني للسيمياء والنص الأدبي، ص 160.

[12]- ينظر، المرجع نفسه، ص 161، 162، 163.

[13]- مسعود بودوخة وآخرون، الأسلوبية مفاهيم نظرية ودراسات تطبيقية، بيت الحكمة، ط1، 2015، ص 72.

[14]- رشيد بن مالك، سيمات سيميائية – مجلة كتابات معاصرة - ، العدد 39، كانون الأول، كانون الثاني، 1999، 2000، ص 45.

[15]- ينظر يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 229، 230، 231، 232.

[16]- يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص 233.

[17]- عبد الله بوخلخال، مصطلح السميائية في البحث اللساني العربي الحديث، ضمن "السيميائية والنص الأدبي"، منشورات جامعة عنابة، 1995، ص 74.

[18]- فايزة يخلف، مناهج التحليل السيميائي، دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 2012، ص 11.

[19]- فاضل ثامر، إشكالية المصطلح النقدي في الخطاب النقدي الحديث، بيروت ، ط1، 1994 ص12.

[20]- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2010، ص 145.

[21]- المرجع نفسه، ص147.

[22]- المرجع نفسه، ص 147

[23]- المرجع نفسه، ص 148.

[24]- ينظر المرجع نفسه، ص 148، 159.

[25]- ينظر المرجع نفسه، ص158.

[26]- عبد الواحد لؤلؤة، أزمة المصطلح النقدي، مجلة علامات، 1994، ص122.

[27]- هيام عبد زيد عطية عريعر، الخطاب النقدي العربي المعاصر وعلاقته بمناهج النقد الغربي، ص539.